ملخص كتاب: "دليل الحائرين"
تأليف: إرنست شوماخر

من إصدارات مركز دلائل للدراسات ١٤٣٨هـ

جنى المعرفة:

مبادرة هادفة لإثراء المحتوى الرقمي بمنتج ثقافي قيّم، يسهم بزيادة مستوى الوعي والمعرفة عن طريق تقديم الكتب الثقافية من خلال محتوى مرئي ومسموع لكي تكون عناقيد المعرفة بين يديك.



ملخص كتاب: **"دليل الحائرين"**، تأليف: إرنست شوماخر
من إصدارات مركز دلائل للدراسات ١٤٣٨هـ

يبدأ إرنست شوماخر مقدمة كتابه بقوله: إن الخرائط قد تقودك إلى الطريق لكنها قطعًا لن تنقل لك صورة العالم كما هي، وذلك لأنها "ذات بعد واحد" أي أنها مجرد "رسمة" لا تتعامل مع العالم كما هو فعليًا، ولهذا السبب تتلخص قدرة صانع الخرائط الماهر في قدرته على تمثيل ما هو على الأرض فعلًا، ويخبرك المؤلف بأسى أنه طوال حياته أُعطي خرائط عن الحياة والعالم ليست كافية تمامًا، لأنها لا تحتوي على أيّ أثر للأسئلة التي يبحث عن إجابتها، بعد ذلك وليتخلص من حيرته قرر الشك في الخرائط، بدلًا من الشك في الأسئلة!

فما قصة الخرائط تلك؟

دائمًا ما يتم الحديث عن أجداد شوماخر بوصمة من الخزي، لأنهم آمنوا بالخرافات، وأفنوا أعمارهم في سبيل أشياء بلا جدوى، كان شوماخر يشعر حيال هذا بشيء من احتقار هذا التاريخ المليء بالضلال الذي "انبثقنا منه".. وعلى عكس الأسلاف، كانت خرائط الحياة المقدّمة للجيل الجديد لا تعبّر عن أي شيء في الحياة باستثناء ما يمكن إثباته ظاهريًا فحسب! لأنه ما من طريق للتعامل مع الحياة – حسب معايير الجيل الجديد – إلا من خلال هذا المنهج، وفقط!

لكن شوماخر اكتشف أنه "لا يعرف شيئًا عمّا يجب معرفته" رغم أنه يعرف الكثير. أسئلة من عينة: ماذا يجب أن يفعل؟، إلى أين يجب أن يصل؟، كلها أسئلة بلا معنى، لأنها كلها تتكلم عن "غاية" لا عن "وسيلة مجرّبة فعالة" والتي لا تتناسب مع القواعد الجديدة، شعور الإنسان المعاصر بفراغه الداخلي كان دافعًا لشوماخر أن ينظر من جديد، من أين أتانا كل هذا؟ فكتب كتابًا يتحدث فيه عن "الإنسان" و"العالم" و"طريق اكتساب المعارف عن هذا العالم" و"ما الذي يعنيه أن تعيش في هذا العالم"؟

- **فتّش عن رينيه!**

إن كان من رجل تدين له أوروبا بفلسفتها بعد أرسطو، فهو رينيه ديكارت، الرجل الذي صاغ معالم كل هذه "النهضة" – بالتعريف الأوروبي– لأنه أول من صاغ معالم المنهج الرياضي، وكان يرى أنه ما من حقائق يمكن الوصول إليها ما لم تمر عبر الحساب والهندسة، وأنه ليس على طلاب الحقيقة أن يتعبوا أنفسهم في تقصّي أشياء لا يمكن التعامل معها كما يمكن التعامل مع مسألة جبر أو حساب مثلثات! شيء أشبه بالميكانيكية، حيث إنه – وحسب ديكارت – ما من ضمان أن العالم مصمم لنصل للحقيقة فيه، وما هي الحقيقة أصلًا إذا لم ترقَ لقوة البرهان الرياضي؟، هل هي الحقيقة من وجهة نظري أم من وجهة نظرك أم ماذا؟

ولهذا السبب: كانت أفكار ديكارت علامة على الجيل الجديد، جيل "الحقيقة السائلة/النسبية" على عكس الجيل القديم، الذي كان يؤمن أن الحقيقة لها وجود "صلب" و"متماسك" ويمكن الوصول إليه عبر طرق عدّة، ليست الحكمة آخرها، ولا الدين أولها، بغض النظر عن الطريقة: آمن القدماء أن الحقيقة موجودة، وأن طريق الوصول إليها هو المهم.

أما الجيل الأحدث، فقد صاغته أفكار ديكارت لتقول إن الحقائق إما "رياضية" وإما "جمع طوابع" ولا شيء في المنتصف! – هكذا بإطلاق تامٍ وبكل غرور! – ليتبعه بعدها: فرانسيس بيكون ليصيغ معالم المنهج العلمي "التجريبي" لتحدث في أوروبا كل هذه الثورة، التي كان أساسها: منهج "ديكارت" العقلي الرياضي، ومنهج "بيكون" التجريبي الاستقرائي. يعلّق شوماخر على هذا مفصلًا أن الشك هو اتجاه فلسفي انهزامي مهما يكن من أمر، وأن اتباعنا لمثل هذه الأفكار قد قادنا إلى أن نتمسك "بالخريطة" لنترك "واقع الحياة" مهملًا ونترك مساحات واسعة جدًا من الوجود بلا تبرير، فقط الكثير والكثير من الأسئلة، دون وجود أي إجابات

تذكر، لأننا في الأساس أغلقنا الباب أمام جوانب عاشت أغلب البشرية محاولة الوصول إلى إجاباتها، ثم أتينا نحن لنقول: كل هؤلاء كانوا يعبثون! وهو ما اعتبره شوماخر فقرًا فلسفيًا مدقعًا!

- **العالم بين نظرتين:**

يقول شوماخر: إن العالم قديمًا كان يعامل على أنه عالم ثلاثي الأبعاد، والذي كان يرمز له بالصليب أحيانًا، هناك الطول والعرض، والارتفاع أو "العمق"، ولهذا السبب كانت هناك دائمًا مساحة للكلام عن "أعلى" و"أسفل" كان هناك دائمًا مساحة للحديث عن "سمو" أو "تسامي"، وكان هناك دائمًا تعريف للإنسان باعتباره صاحب طبيعة مزدوجة جزء يسعى إلى الأعلى، وآخر يسعى إلى أسفل!
الآن، لأن ديكارت يريدنا أن نتعامل بالرياضيات: اختفى البعد الثالث، وتحوّل السؤال من "التسامي" إلى "النفعية" التي لا يترك التفكير الرياضي الصارم اعتبارًا لغيرها لتكون طريقًا للإنسان في حياته، فبدلًا من أن إجابة السؤال:"ما الذي يجب عليه فعله؟" هي: يجب أن تحاول قدر الإمكان أن تتسامى وتصل للفضيلة، صارت إجابة نفعية من عينة: "حاول أن تجعل من نفسك مرتاحًا قدر المستطاع" لتظهر كل الأمراض العصرية على السطح: الفردانية، الإنسان المشوّه ذو البعد الواحد. إذ أنه إذا تمّ تجاهل البعد المتسامي، فلا يمكن تعريف الطبيعة الإنسانية إلا بوصفها "حيوانًا" بغض النظر عمّا يليها! ولتظهر فوق السطح أيضًا الحيرة الوجودية، إذ أن الإنسان لا يدري ماذا يريد بالضبط؟، لماذا؟، لأن الحياة فيها الكثير والكثير من الأشياء التي لا تخضع للقياس "الكمّي" بل "الكيفي"، الحياة فيها الكثير من الأشياء التي تخضع لمنطق "الأعلى" و"الأدنى"، لكن ليس فيها الكثير من الأشياء التي تخضع لمنطق: ١+١=٢، وبالتالي فقد الإنسان العصري القدرة على الإجابة في النهاية!

لينغمس الإنسان في موج من اللذة والبحث عن المتعة التي تحاول تعويضه عن الإجابات المفقودة، لكن اللذات جميعًا حسيّة، وهو ما يعني نقصها، كما قال القدّيس توما الإكويني: إن الإنسان والحيوان يشتركان معًا في كونهما يبحثان عن اللذة، لكن الإنسان بتمثله للفضيلة واكتسابه للمعارف والحكمة يصل إلى لذة أكمل وأعمق، لا كتلك التي يحصلها الحيوان من مجرّد قضاء لذاته الحسّية!

- **العالم الهرمي، رباعي الطبقات، ثلاثي الأبعاد:**

كان تصوّر الأجداد عن العالم عبارة عن حلقة ذات مستويات تتباعد عن بعضها، مركزها الوجود الإلهى، وكلما ابتعدنا عن المركز كلما قلّ بعد الفضيلة والحكمة والكمال – وهي التي يتصف بها الله –، في المستوى البشري. هناك من يقف على التخوم، فمن يقف على تخوم مقاربة للمستوى الحيواني هو من يتبع لذته الجسدية، ومن يقف على تخوم مقاربة لمستوى الملائكة هو من يسعى للحكمة والفضيلة!
بينما في تصورنا اليوم – المدفوع من الخلف بنظرية التطوّر – نفضّل أن نبدأ من المرتبة الأدنى إلى الإنسان الأعلى، وبالطبع يغيب الله عن هذا التصور.
ومهما يكن من أمر، فإن التصور لا يهم كثيرًا فيما نصبو إليه، فدعونا نستخدم نموذج جيل اليوم.. العالم ذو طبيعة هرمية، تبدأ من المرتبة الأدنى m والتي تمثّل المادة المطلقة التي ليس فيها حياة – على الأقل بشكل يمكن ملاحظتها – من الواضح أن هذه المادة قد أضيف لها شيء ما مجهول الهوية ليحولها من صخرة إلى نبتة حية تقوم ببعض الأعمال الحيوية، نفرض هذا المجهول بـ x أي أن المستوى الأولي للحياة لا يوجد إلا إذا وجد m و x، ثم هناك فارق مهول بين النبات والحيوان في الوعي هذا الفارق الذي يحول نبتة تقوم ببعض الأعمال الحيوية، إلى حيوان يقوم بعمليات إدراكية وحيوية معقدة، يمكننا تسمية هذا المستوى y. وأخيرًا "القفزة الوجودية الهائلة" التي تحوّل الحيوان من مجرد حيوان يدرك ويعي، إلى إنسان يدرك ذاته أي لديه القدرة على الوعي بوعيه، وعلى مراقبة تفكيره، تجعله قادرًا على التحدث بلغة، وأن يقول:"أنا"، وأن يكتسب المعرفة

ويجمّعها ويبوبّها. ويمكننا تسمية هذه النقلة z . وإذاً: العالم بهذا التصور عبارة عن هرم، قاعدته المادة في مستواها الجامد، ثم إذا أردت أن تنتقل صعودًا نحو قمة الهرم، فلا بد من أن تحدث "قفزة وجودية"، والتي بالطبع – كما يقول شوماخر – ليست أصلًا في مقدورنا نحن البشر، نحن لا نستطيع تحويل الجماد إلى نبات، ولا نستطيع تحويل سنابل القمح إلى عصفور، ولا نستطيع تحويل القرد إلى إنسان! لكننا يمكن أن ننحدر في الاتجاه النزولي، يمكننا أن نضرب كلبًا على رأسه لنفقده الوعي، أو نقتله تمامًا لينزل إلى قاع الهرم. وبالتالي يمكننا التعبير عن الإنسان بالمعادلة التالية: m+x+y+z (لاحظ مرة أخرى: نحن لا نستطيع أن نمنحه كل ذلك، فقط يمكننا أن نسلبه منه) كل من x y z هي أشياء غير "مادية" وغير "مرئية" فقط m هي المرئية، ورغم أن المادة شيء معقد حين نأتي لدراستها، لكنها مهما يكن لا ترقى لدرجة تعقّد x التي لم نفهم كنهها بعد، ولا بالطبع y أو z.

بقيت طريقة اكتساب مستويات الوجود – وفقًا لهذا النموذج – شيئًا غامضًا ومبهمًا في القديم والحديث، وتعددت الإجابات. وكانت إجابة الجيل الجديد هي إجابة نظرية التطور التي تقول: كل هذا حدث بشكل عشوائي، لكن المشكلة في هذا الطرح – وفقًا لشوماخر – أنه يجعلنا غير قادرين على الوثوق بأي معرفة، فما الذي يجعلنا نؤمن أن القوانين الرياضية التي أسس عليها ديكارت منهجه صحيحة، لماذا يجب أن تكون ١+١=٢؟ لماذا لاتكون ٥ "بالصدفة أيضًا"؟!

حسب هذا التصوّر، أين تقع مجالات دراسة العلوم الطبيعية (الفيزياء والكيمياء)؟، من الواضح أنها تقع في المستوى الأدنى من الهرم، حيث المادة المجردة، ليست هذه هي المشكلة، المشكلة أن يقال إن العالم كله والطبيعة الإنسانية كلها منحصرة في المستوى الأولي من المادة، كالمقولة المشهورة بأننا نحن البشر لسنا إلّا مجموعة من الذرّات، والذي يقول شوماخر إنه يشبه أن تقول: إن مسرحية هاملت ما هي إلا تشكيلة من الحروف!

ولهذا كانت علوم الحياة الحديثة – حسب شوماخر – لا تكاد تتعامل مع الحياة فعلًا، لأنها تتعامل فقط مع المستوى الأدنى من الهرم! إذ أنه وصف "الحيوان" بأنه مجرد "آلة مكوّنة من مجموعة أجزاء تحمل مظاهر الحياة" أمر سخيف ومؤسف ومضاد للمنطق، كما أن وصف الإنسان بأنه حيوان اجتماعي أو قرد عارٍ أشبه بوصف كلبٍ بأنه ملفوفٌ متحرك، أو زهرة تنبح! كما أنه كلما اتجهنا إلى أعلى الهرم زادت صعوبة التمييز، فمن السهل التمييز بين الحيّ والميت، وتعريف هذا وذاك، لكن من الصعب جدًا التعامل مع مستوى "الوعي" أو "إدراك الذات" بنفس تلك السهولة، لأن الأمر أكثر تعقيدًا من مجرد وجود "مظاهر الحياة".. وقد كانت دراسة هذه القدرة "إدراك الذات" أمرًا شائعًا اشتغل به فلاسفة وعلماء العالم أجمع قبل عصر اليوم، لأنهم اعتقدوا أن تلك القدرة هي حقًا ما يميّز الإنسان، ولم يقعوا في فخ "الاختزالية" بتعريف الإنسان بأنه "حيوان" أو حتى "كائن حيّ اجتماعي".

- **لا مرئيون: الطبيعة الإنسانية كما يقدمها لنا النموذج الهرمي**

يستكمل شوماخر ما بداه بناءً على نموذج الطبيعة ذات الطبقات الأربع تحت عنوان "التدرجّات"، فيقول: إنه كلما انتقلنا من طبقة لطبقة نلحظ اختلافًا واضحًا في محاور عدّة يمكننا الاجتهاد في تسميتها بالتالي: ثنائية الفاعلية واللافاعلية – ثنائية التكامل والوحدة – ثنائية المرئي واللامرئي – ثنائية الغائية والزمنية والتي أدخلت بعدًا رابعًا لنموذجنا ثلاثي الأبعاد هو بعد الزمن.

الثنائية الأولى متعلقة بالفاعلية: أي القدرة على الحركة فكلما انتقلنا من الجماد الذي يمثل حالة اللافاعلية الكاملة، حيث لا يتسم بأي فعل، فالصخرة "صماء" لأنها مجرد "شيء". فإن انتقلنا للنبات صار لدينا معالم للفعل: مثل الاتجاه نحو الشمس، والنمو، لكنها كلها أفعال "حتمية" أي أن النبات أيضًا لا فاعل لكن ليست لافاعلية كاملة، لتظهر "القفزة الوجودية" الثالثة التي تمثّل عالم الحيوان، والذي نلحظ فيه الفاعلية، حيث يمكن

للحيوان الحركة كيفما شاء، ويوجد عمليات ذهنية، بالتأكيد لا ترقى للتفكير إذ أنه مشوش جدًا لدى هذا المستوى، لكنه يظل موجودًا، وهذه حالة الفاعلية غير الكاملة، وصولًا إلى الفاعلية القصوى التي تظهر فيها "الإرادة الحرة" حيث يمكن للإنسان أن يتحرك دونما سبب بيولوجي فرضته عليه الطبيعة، بل "الغاية" أوجدها هو لنفسه. حتى عندما لا تتوفر، يمكنه أن يتحرك بلا سبب -–بالطبع لا نعني هنا أنه لا توجد قيود لا يجب احترامها سواء تلك الطبيعية أو الاجتماعية، لكن المقصود وجود إرادة حرة متحرّكة – .

الثنائية الثانية متعلّقة بالتكامل والوحدة: أي القابلية للتجزيء والاختزال، ونلاحظ هنا أن الوحدة الأولية للمادة يمكن تجزيئها بل تفتيتها بلا حرج، اجمع كومة من التراب، ثم انثرها، تجد ذرات التراب تطير. فإذًا هنا: التكامل قليل جدًا، والوحدة بارزة تمامًا!
في النبات نفس الأمر لكن يوجد جزء من التكامل، إذ أن الوحدة الأولية للنبات اللازمة لنموه البذرة صغيرة جدًا، وبالتالي هناك جزء من التكامل لكنه شديد الضآلة.
في الحيوان يظهر التكامل بشكل عنيف، إذ أنه لا يمكن إرجاع الحيوان إلى وحدة أولية مفككة، بل لا بد من تكامل أجزاءه معًا ليعيش ويمارس الحياة بشكل طبيعي، هنا ظهور قوي للتكامل وانعدام تقريبي للوحدة!
في الإنسان يظهر نوع أشد دقة وصعوبة من التكامل، إذ أن التكامل لا يكون فقط في العمليات البيولوجية، بل أيضًا في اكتساب المعارف وطرق التفكير، أي أن الإنسان في حالة تكامل دائمة ومستمرة، ولا يمكن اعتبار شيء ما هو "الوحدة الإنسانية" الخالصة، لا يوجد شيء هكذا على الإطلاق!

الثنائية الثالثة المتعلقة بالمرئي واللامرئي: في مستوى الهرم الأدنى – أي المادة – لا يوجد شيء غير مرئي، كل شيء ملاحظ بدقة، ويخضع لقوانين محكمة ودقيقة، ولا يمكن أن يخفي الجماد شيئًا عن طبيعته! كذلك الأمر في النبات أيضًا – لاحظ أن قولنا أنه مرئي لا يعني إنكار كونه معقدًا – في الحيوان هناك وجود لبعض المشاعر الأولية من الخوف والجوع والإدراك الجزئي، وهذا جانب لا يمكن دراسته ضمن العالم المرئي بل يمكن الاستدلال عليه فقط. أما في الإنسان، فتقريبًا يمثل المرئي ١% من تكوينه، إذ أن "أحلامنا وعواطفنا وأهوائنا وأفكارنا ومخيلاتنا ومكائدنا وأسرارنا وطموحاتنا وآمالنا ومخاوفنا وشكوكنا وحيرتنا ووجداننا وتأملاتنا وتفكرنا وفراغنا وريبتنا ورغباتنا واشتياقنا وشهيتنا وإحساسنا وما نحب وما نبغض وما يجذبنا وما نكرهه كلها لامرئية" كما يقول توما الإكويني. وهذا يعني أن "ذواتنا" نفسها لامرئية بالأساس!، من هنا تجد كيف يكون الأمر ساذجًا وسخيفًا اختصار الإنسان في الجانب الذي يخضع للملاحظة التجريبية منه فقط (المرئي) وإهمال جانبه غير المرئي الذي يشكله كـ"شخص" أو "ذات".

الثنائية الرابعة المتعلقة بالغائية والزمنية: وهنا يضيف شوماخر بعدًا رابعًا لنموذجه الهرمي، إذ يقول أنه ووفقًا لما ذكرناه سابقًا، يجعل هذا "العالم" المتاح لكل مستوى مختلفًا كليًا عن المستوى السابق له أو اللاحق، وهو ما يعني أن محاولة دراسة الحيوان فيما يتعلق بالغائية والشعور بالزمن لتطبيق النتائج على الإنسان هي مجرد هراء، لأنه ما من أحد سيدرس مجموعة من التراب ليطبّق نتائج الدراسة على الحيوانات، نفس الأمر في محاولة تعميم نتائج الفيزياء والكيمياء على العالم الإنساني الذي سبق وعبر عنه باللامرئي، ولهذا السبب فإن شعور الإنسان بالغاية وبالزمن وإدراكه لمفهوم "الأبد" هي خصيصة إنسانية أخرى تجعل عالمنا مختلفًا عن ذلك الذي تعيشه الحيوانات، أو النباتات، أو ذلك الذي توجد فيه بلا حياة الجمادات.

- **أنت لا ترى بعينيك، بل بعقلك! (المعرفة والقوة الفكرية والتحيّز المادي)**

يقول المرشدون دائمًا أن العبرة بالمحل القابل، فمهما يكن من أمر لو أنك لم تكن مستعدًا فعلًا للمعرفة، فلن تعرف شيئًا، ودعني أضرب لك مثالًا: لنفترض أن هناك كتابًا ملقىً على الأرض، سيراه الحيوان كتلة من الألوان، بينما سيراه إنسان جاهل مجموعة من الورق، وسيراه إنسان أقل جهلًا ورق عليه حبر أسود، وفي نهاية المطاف، سيراه إنسان على أنه نص يحمل معنىً.

لاحظ أنه في المثال السابق لم تتغير الحقائق الموضوعية الخارجية على الإطلاق، الكتاب هو الكتاب، لكن كيف فسرّه كل ناظر إليه؟، تلك كانت نابعة من حقائق "داخلية" فالكتاب حقًا كتلة من الألوان، ومجموعة من الورق، عليها حبر أسود، بالفعل تمامًا!، إذا كنا نتعامل مع الكتاب في المستوى الأدنى من مستويات الهرم (المادة)، لكن الذي يمنح الكتاب معنى، ليس هذا المستوى، بل المستوى الذي يضفي للأشياء معنى، وهو المستوى الرابع (الإنسان)، لهذا السبب: عيناك ليست هي التي ترى الأشياء، بل عقلك!، ليس عقلك!، بل إيمانك! كيف ذلك؟ لنفرض أن نفس الكتاب وقع في يد مجموعة من الفضائيين فائقي الذكاء، وظلوّا يحللون العلاقات المنطقية الرياضية بين مساحات الحروف وطريقة رسمها، حتى تعلموا كيف ينسخوا مثل هذا الكتاب تمامًا، لكن للأسف: لا يفهمون حرفاً واحدًا منه، لأن المشكلة ليست في الذكاء، بل في اقتناعهم أن هذه الحروف مجمّعة تدل على معنى ما يجب البحث عنه، تعاملهم مع المستوى السطحي للأشياء جعلهم لا يستفيدون من الكتاب حقًا!

ما يحتاجونه ليس الذكاء، بل الإيمان بـ"المعنى"! الذي بدوره سيجعلهم يبحثون عنه! لهذا يخبرك شوماخر أنه إذا كنت تتبنى المذهب المادي لتفسير الحياة، فأنت في الحقيقة تحرم نفسك، وتتعامل مع الكتاب على أنه كومة ملونة! حواسنا شديدة العبقرية لأنها قادرة على التقاط الكثير من المؤثرات المتنوعة والمتباينة، لكننا لا نرى هذه المؤثرات إلا إذا كانت تحمل "معنى" ولهذا المعنى حاسة أخرى، توجد في "القلب"، لماذا في القلب؟، لأنه ليس مرتبطًا بالذكاء، بل "بالحقيقة"!، سمّى شوماخر هذه الحاسة حاسّة "النور"، وهذه الحاسة لا يمكننا التعامل معها دون الأخذ في الاعتبار أن المادة قاصرة عن المعنى ولا تفسره، إنها فقط تتعامل على مستوى ضيق وفقير معنويًا، وهو مستوى الجماد.

- **فتّش عن رينيه مرة أخرى، ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان!**

قال ديكارت إن المعرفة التي يجب أن نسعى لطلبها ونبذل في سبيلها أوقاتنا ومجهوداتنا العلمية، هي تلك المعرفة التي يمكن قياسها كميًا، أي تلك المعارف التي يمكن التعامل معها بشكل رياضي، يمكن أن نقول أن هذا كان تأسيسًا لرفض النموذج الهرمي للعالم، والتعامل مع المستوى الأدنى دائمًا، لأنه من الواضح أن الأرقام لا تظهر كفاءة إلا إذا كنّا نعامل الإنسان على أنه كائن فيزيوكيميائي ليس إلا، أما مستوى الحياة والوعي وإدراك الذات فهي لغة لا يمكن التعبير عنها بالأرقام بأي شكل!.. ولأن الأرقام لغة عمومية، ويمكن لأي أحد اتقانها واستخدامها، أدى هذا إلى انفصال نكدٍ عن تاريخ طويل من اللغات التي كانت لا تستخدم نفس المنطق، فنشأت قطيعة حادة بين سؤال "الغاية" وبين كلمة "علم" وصار الكلام في ما الذي يتوجب علي فعله؟، وما هو الخير والشر؟، أمورًا "غير علمية"، ويرى شوماخر أن هذا الاستخدام لكلمة "علمي" استخدام مسيء ومضرّ جدًا، وأنه ما من مبرر يقضي بأن تغلق الباب أمام كل هذه الأسئلة لأنها فقط لا تخضع للحسابات الرقمية!، بينما الأولى والأصح أن تسأل عن "صدق المعرفة" نفسها، لا عن كونها علمية أو غير علمية..

يستطرد شوماخر فيقول أن هذا الفصام النكد جعل هناك "علمًا من أجل الفهم" والذي هو الحكمة، التي كانت تجعل العلم سبيلًا للحصول على السعادة في الدنيا والخلاص في الآخرة معًا، هذا علمٌ، وآخرُ هو "علم من أجل التحكم" يهدف لدراسة الطبيعة المادية للأشياء والحياة والأشخاص والذوات، بهدف السيطرة عليها تمامًا،

الأول كان يعتبر الطبيعة خلقة الله، والثاني يعتبرها عدوًا يجب إخضاعه بل استغلاله.

بالتجاهل التام لـ"العلم من أجل الفهم" تحدث ثلاث عواقب خطيرة جدًا:

الأولى: بالتجاهل المستمر للأسئلة التي توصم بأنها غير علمية، مثل ما هو الخير والشر؟، ما الذي يجب فعله؟ ما معنى حياتي وغاية وجودي؟، تغرق الحضارة في مستنقع من المصائب والإحباطات الفردية والجماعية، سيفقد الناس فيها الصحة والسعادة تدريجيًا، حتى لو كانوا يأخذون أعلى الأجور، ويحصلون على أفضل رعاية صحية، لأنه "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان"

الثانية: تقييد المجهود العلمي بالأوجه السطحية من الحياة فقط، سيجعل العالم يبدو موحشًا وبلا معنى، حتى لأولئك الذين يطلبون الحكمة (العلم من أجل الفهم) فلن يكون لهم تأثير يذكر، وستظل هذه الفكرة تولّد نفسها ما دام يُنظر للإيمان أنه طريق مسدود، بينما ينظر للعلم الذي يتعامل مع المستوى السطحي أنه طريق الخلاص – وهو الوضع المعكوس للحقيقة –، الأمر يشبه أن نلاحظ الأشياء بعين واحدة مصابة بعمى الألوان، بينما نحن في الحقيقة مؤهلون لأكثر بكثير من ذلك!

الثالثة: القوى العليا للإنسان التي تتعامل مع العالم بوصفه متعدد الطبقات، لا بوصفه مادة فقط، ستضمر في النهاية وتعطب من عدم استخدامها، وهذا يعني تراكم "الأسئلة" الذي يعني تراكم المشاكل، الذي يعني الخراب في نهاية الطريق، وبينما تستمر الثروات الرأسمالية في التراكم، تستمر قيمة الإنسان في الانحدار إلى أسفل!.

- **لن ينتفع بالحكمة إلا من عرف نفسه: ميدان المعرفة الأول.**

بعد أن انتهى بك شوماخر عبر هذه الرحلة من نقد صناع الخرائط الجدد، ومن بيان طبيعة العالم، وأن الأدوات التي نملكها للإدراك حقًا مذهلة ومتسعة وليست مقصورة في الحواس، يبدأ واصفًا خريطته الفلسفية لفهم العالم، انطلاقًا من ٤ ميادين رئيسة:

الميدان الأول: من أنا؟ كيف أعرف نفسي؟، **الثاني:** من أنتم؟ ماذا عن الآخرين؟ **الثالث:** كيف أبدو بالنسبة للآخرين؟، **الرابع:** كيف أرى العالم الخارجي؟

ومن هذه النقطة، ينطلق شوماخر مباشرة إلى ميدانه الأول: ميدان النفس. حيث يخبرك أنك لن تعرف نفسك حق المعرفة إلا إذا كان تفكيرك متجهًا إلى الداخل، إلى نفسك!، تلك الوصية: "اعرف نفسك" تبدو كصوت واحد يتردد صداه في كل أديان وحكم البشرية، من الهند الشرقية وحتى أقاصي الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، من ديانات العالم القديم والعالم الجديد، من البوذية والمسيحية والإسلام وغيرها من الديانات ومدارس الحكمة.

يبدو إذًا أن قيمة "معرفة الذات" قيمة جوهرية للإنسان لكي يصل إلى "أعلى" لكي "يسمو" ومن الجليّ أيضًا أن التقنية الرئيسية التي اتبعتها كل هذه الأديان والفلسفات كانت: التركيز والانتباه المتجه للداخل! فاليوجا التي تركز على عزل الإنسان عن تفكيره وتحريره منه، والممارسات الرهبانية المختلفة التي تقضي بالعزلة والتأمل في الفضاء، والممارسات الصوفية التي تقضي بالتعبد الطويل المستمر، وحتى الممارسات الدينية المتمثلة في الصلاة المسيحية التي تقضي بالتواصل مع "الله" وعزل "النفس" عن التفكير في غير الله! وهنا يحذّرك شوماخر أنك لو لم تفهم حقائق الحياة كما عرضها سابقًا، وأن الإنسان فيه مكوّن لامرئي أعظم كثيرًا من المكون المرئي، فقد يكون هذا فخًا لا يمكنك الفكاك منه، ولأن هذه الحقيقة "أن الإنسان فيه مكوّن روحي" كان تدريسها للناس مهمّة الأديان، ولأن أوروبا تركت الدين منذ زمن، شكّل هذا أزمة عميقة في إدراك الإنسان لنفسه وجعل هذا الميدان مهملًا وبلا عناية، مما جعله "فضاءً مسمومًا" تعشش فيه الحيرة وينمو فيه الضياع!

يقول شوماخر أن هدف كل هذه التعاليم كان الوصول لـ"الأنا الصافية" التي يفتح باب معرفتها إدارك الحقائق الكلية في الوجود.. لذا إذا كنت تريد الخطوة الأولى للحائرين وفقًا لدليل شوماخر: "اكتشف نفسك"!

- **لن ينتفع بالحكمة إلا من عرف نفسه: ميدان المعرفة الثاني.**

يقول شوماخر: إنه لكي تعرف الآخرين، عليك أولًا أن تعرف أنك تتعامل مع عالم أغلبه لامرئي، فمثلا لو رأيت أحدهم يبكي متألمًا، فلو اقتصرت على المرئي فإنك حينها ستركز على الدموع ومظاهر الألم، والتي هي في الحقيقة ليست إلا مظاهر!، وحينها ستخسر قدرتك على فهم الآخرين، لن تفهم ألم الآخرين إلا إن سمحت لنفسك بالتحرر من المظاهر. حسنا؛ كيف تتحرر من المظاهر؟، تتحرر بأن تعرف نفسك.. بأن تجرب الألم، والحزن، والسعادة من الداخل، فتحمل نفس القدر للآخرين.

ثم ينطلق شوماخر في دفاع طويل عن الطبيعة المتجاوزة للإنسان، وعن أن الوجد الصوفي وكشوفات اليوجا، وسكينة الصلاة كلها حقيقية تمامًا، وليس معنى أنك لا تشعر بها أنها غير موجودة، في تأكيد منه على أن مفهوم الغرب عن العالم يدمّر الإنسان وقدرته على فهم نفسه والآخرين من حوله! حيثما لا يعني البكاء إلا مجموعة من التفاعلات الكيميائية التي لو أوقفناها فإنه ما من حزن!، – كما تنص الرؤية العلموية المادية – وهذا يعني أن فرصك لفهم نفسك، والتعاطف مع معاناة الآخرين شبه معدومة!

- **من الداخل إلى الخارج: من الذات إلى الموضوع.. ميدان المعرفة الثالث.**

نحن لا نعيش وحدنا، تلك حقيقة أليس كذلك؟ الآن ماذا سيحصل بالضبط لو ركزّنا فقط على فهم ذواتنا واكتشاف أنفسنا؟

سنبالغ جدًا في تقدير حجمها، سنشعر كما أن لو أن الكون له مركز هو نحن، وأن نوايانا أوضح من أن يتم التعبير عنها، وبالتالي نقع حينها في أخطاء متتالية أمام الآخرين، لأن الآخرين لا يعرفون نوايانا، بل يلحظون تصرفاتنا!

هذا يذكرنا بالقصة الأسطورية التي تقول إن أحدهم قُبض وصعد إلى السماء، والتقى برفقة طيّبة، ارتاح لهم جميعًا، إلا واحدًا منهم كان كلما ذهب لركن ما رآه، كان يبغض فيه كل شيء، ولما سأل عنه، قالوا له: "الدينا هنا مرايا مميزة تكشف الحقائق، الذي سألت عنه لم يكن إلا أنت!"

لذا يحذرّنا شوماخر من أنه لو لم ننجح في ملاحظة سلوكنا الخارجي، كما يراه الآخرون فإننا سنكون فشلنا من الخطوة الأولى، ولم نحصد ثمرة معرفتنا العميقة بأنفسنا! وهنا يطلب منك شوماخر أن تنفصل عن وعيك y وتنتقل لإدراكك لذاتك z والتقط صورًا لنفسك، ليس بهدف أن تنتقد نفسك، بل فقط مجرد ملاحظة، حاول أن تنظر لنفسك من عيون الآخرين، أو باختصار: عامل الآخرين كما تحب لنفسك..

ويحذرك شوماخر من نفسك!، فلكل إنسان منّا حيل دفاعية يتحصّن بها، لهذا يقول لك: لا تنشغل بعيوب الآخرين وأنت تحاول أن تلاحظ أثر سلوكك عليهم، ركّز فقط على عيوبك أنت! لأنك لو وقعت في هذا الفخ، فلن تستفيد مطلقًا من هذا الميدان! هل تريد طريقًا مختصرًا لتجتاز هذا الميدان سريعًا؟ عليك بالإيثار!.

- **البوابة الأخيرة، في مجالات العلم الطبيعي: ميدان المعرفة الرابع.**

في هذا الميدان ندرس ظواهر الأشياء الجامدة، مما يعني أننا يجب أن نستبعد كل شيء داخلي ونركّز مع المادة الجامدة تمامًا (المستوى الأول من الوجود)، وهذه – عند شوماخر – ليست مشكلة، المشكلة تكمن في محاولة تعميم هذه المنهجية على الأشياء الأكثر تعقيدًا، فنجد بعض المدارس التي تنادي بتطبيق المنهج التجريبي على الإنسان واستبعاد كل المؤثرات الداخلية التي تكوّنه (المدرسة السلوكية)، وهذه المدرسة تؤدي

حقيقة إلى تدمير الإنسان، لأن التجربة ممكنة على الشيء المادي، حيث لا حياة فيه، أما في مستويات من الوعي والإدراك الذاتي والإرادة الحرة فإن التجربة لن تخطو بنا خطوة واحدة للأمام!

كما أن طبيعة التعقيد و"النضج" للشيء محل الدراسة، يجعل التجربة في ميدانه أصعب، وهذا يعني أن تكون العلوم التي تدرسه أقل نضجًا وتقدمًا بطبيعة الحال من تلك التي تدرس أشياء أقل نضجًا.. فالعلم الذي يدرس الإنسان، لاشك سيكون أكثر تعقيدًا وأقل نضجًا من علم يدرس ظواهر المواد الجامدة كالفيزياء والكيمياء. يفرّق شوماخر بين نوعين من العلوم التي تدرس المواد الجامدة:

النوع الأول: العلوم الوصفية: وهي تلك التي تهتم بأن تصف ما يوجد في الخارج فعلًا بغض النظر عن نتائجه، كمثال: علم النبات والجغرافيا.. هذه العلوم ليست مهتمة بالنتائج بأي حال، المهم أن نصف ما نراه..

النوع الثاني: العلوم الإرشادية: وهي علوم تهتم بوضع الأسس النظرية والتطبيقات المختلفة لكي نصل إلى نتائج معينة، كمثال: علم الكيمياء.

وفي نوعيّ العلوم تلك: لا تكون الحقائق هي الحقائق المجردة على كل حال، فكلها "منتقاة" و"مثالية" وهذا لسبب وجيه: لكي يمكن دراستها كميًا، ففي العلم الوصفي يجب أن يكون الوصف أمينًا لأقصى درجة، مما يعني عدم إهمال أي شيء "مهم" وهذا يعني مساحة واسعة من الإهمال أيضًا على الجانب الآخر، وفي العلم الإرشادي ليس للباحث اهتمام أصلًا بالوصف، بل باستبعاد أكبر قدر ممكن من العوامل، حتى تصير الخطوات "واضحة" و"محددة" و"شديدة الدقة"، يمثّل هذا الأمر "مبدأ مبضع أوكام" والذي ينص أنه إذا تساوت نظريتان في القوة التفسيرية واستيعاب الظواهر، فإن علينا أن نتجه فورًا لتلك التي تحتوي على فروض أقلّ!

وفي طريق تقدّم هذه العلوم – الإرشادية – كانت دائمًا ما تخدمها الطبيعة، لأنها منظّمة بشكل دقيق ومذهل، وهذا ما جعل كثيرًا من هؤلاء العلماء يستبعدون فكرة الصدفة والعشوائية ويقولون أن الكون ذو نظام دقيق ومحكم، لكن ولأن هذه العلوم بطبيعتها تتعامل مع ظواهر الأشياء، فقد عزا بعضهم هذا لمبرمج عظيم أو عقل جبار وأشياء أخرى إلا "التصور القديم للإله"، وهذا كما يرى شوماخر لأنهم مصروّن على التعامل مع الظواهر دائمًا.

من هنا يقول شوماخر أنه إذا كانت العلوم الإرشادية مهتمة فقط بأفضل طريق موصلة للنتائج، فلا يجب – عبثًا – أن نحاكمها إلّا إلى نتائجها مجرّدة من أي اشتقاق فلسفي وبعيدًا عن فكرة "الحقيقة" لأن هذه ليست الحقيقة، بل انتقاؤنا نحن للحقيقة، وهو انتقاء براجماتي تمامًا: إذ أنه يتشكل على الصيغة التالية: "ما دام الأمر ينجح: فهو صحيح"، ومهما يكن: فتلك القاعدة البراجماتية لا تعني أي شيء إذا ما كنّا نسأل عن الحقيقة فعلًا.

لماذا؟، لأنه دائمًا ما يأتي أمر "ينجح" أكثر من سابقه: نظريات كوبرنيكوس عن دوران الشمس حول الأرض وحساباتها، كانت في عصره في نهاية الدقة وكان لها قدرة على التنبؤ، وهو ما كان خاطئًا في النهاية، أي "ليس صحيحًا"، وهو ما يعني أن المبدأ البراجماتي قد يساعدنا حقًا في تقدم العلوم الإرشادية، لكنه أبدًا لن يكون العامل المساعد للوصول للحقيقة، لأنه أصلًا ليس مهتمًا بها، بل بما "ينجح" ويؤتي نتائجه.

كما أن هذا الأمر الذي "ينجح" عادة ما تعترضه ظواهر غير مفهومة في كل مرة، يصرّ العلماء حينها على أن هذا "أمر غير مفهوم" ولا علاقة له بالمبدأ البراجماتي السالف ذكره طالما كان "ينجح"، يعني أن الأمر ليس مرتبطًا بالحقيقة، بل بالبراجماتية!، وهذه ليست تمثّل أي مشكلة إذا ما كانت محصورة في مجال الظواهر المادية، لأن هذا هو المكان الصحيح للبراجماتية.. لكن المشكلة تظهر عندما يتمّ استدعاء مثل هذه البراجماتية في التعامل مع المستويات الأعلى من الوجود، أو في محاولة وصف ظواهرها، كمثال: ما الذي يجعل الكائن الحيّ حيًّا؟ (أي ظاهرة الحياة)، الجميع تقريبًا:علماء وعامة، يرون أن هناك شيئًا يفرق بين مستوى المادة الجامدة ومستوى الكائنات الحيّة، لكن ما هذا الشيء؟، لا أحد يعرف!

حاول هنا أن تتعامل بقواعد المنهج العلمي الإرشادي: استبعد أي شيء لا يوصل لنتيجة مادية، واستبعد أكبر عدد ممكن من الفروض، ما الذي سيحصل؟، ستجني نظرية شديدة السخف لو حاولت!، فالمهم في العلم الإرشادي ليس مدى "صدق" الحقائق، بل "مدى خصوبتها"، أي: قدرتها على إنتاج النتائج.
المشكلة تظهر عندما نعتبر أن هذه هي طريق الحقيقة الوحيدة، لأننا بهذا تقريبًا ننسف الحقائق نسفًا، ونجعل صورتنا عن العالم مشوهة وغير ناضجة، ولا تعبّر عن المستويات الأعمق للوجود مثل الحياة والوعي والإدراك الذاتي، وهو ماحدث تمامًا مع "نظرية التطوّر".

- **التطوّر: القفزة غير المبررة من الوصفي إلى الإرشادي.**

لو توجهنا لأنفسنا بالسؤال: إلى أي مجموعة من العلوم تنتمي نظرية التطوّر، سنجد أنها تنتمي بلا شك للعلم الوصفي، ذلك الذي يصف ما يحدث أمامنا بالفعل بعيدًا عن نتائجه، فالنظرية مبنية أساسًا على ملاحظة التنوّع المذهل في الكائنات الحيّة، والذي بدوره طرح السؤال: من أين أتى كل هذا؟
وإذًا: كيف ومتى ولماذا تحوّلت النظرية من مجرد وصف، إلى نظرية تفسيرية تنتمي للحقل الإرشادي لا الوصفي وتستخدم في إصدار الأحكام؟ تلك خديعة منهجية كبرى في رأي شوماخر و"خطأ فلسفي ذو عواقب وخيمة"، يقول شوماخر إن أي شخص قادر على التفكير الفلسفي لن يخفى عليه أن ملاحظة التنوع في الكائنات الحيّة، لن تقودنا إلى أن نقول: أن هذا التنوع تمّ تلقائيًا وصدفويًا ودون خلق أو توجيه إلهي، لأن بحث هذا الأمر يقع خارج نطاق "الملاحظة المادية" بأي حال، أي أن هناك قفزة واضحة جدًا حدثت من الأسباب إلى النتائج دون إحكام بنائها المنطقي!
وهنا يعلق شوماخر قائلًا: "الأمر بسيط، أليس كذلك؟، جمعت المركبات العضوية نفسها بنفسها، وأحاطت نفسها بغشاء – وهو أمر سهل تمامًا على هذه المركبّات الذكية – وفجأة ولدت الخلية!، وحين وجدت، لم يكن هناك ما يمنع من وجود شكسبير!، سيتسغرق الأمر بعض الوقت بالطبع، ومن ثمّ فلا معجزات، ولا قصور في المعرفة، إنه لمن تناقضات عصرنا البارزة أن أناسًا يسمون "علماء" قادرين على التلفظ بهذه التخمينات الطائشة ونسبتها للعلم، وهم في ذلك آمنون من النقد!"
يقول الدكتور كارل ستيرن موافقًا له: "النعرض جدلًا نظرية التطور في أفضل صيغة علمية لها، فسنجدها تقول: في لحظة ما من الزمن، أصبحت درجة حرارة الأرض في غاية الملاءمة لتجتمع الذرّات من العناصر الحيوية معًا، وباجتماعها معًا بتفاعل دقيق حدث من خلال عدة حوادث عشوائية، ظهرت الحياة!، ومن تلك النقطة، عمل الانتخاب الطبيعي عمله، لينتج في نهاية المطاف كائنا قادرًا على تفضيل الحب على الكراهية والعدل على الظلم وعلى كتابة الشعر كدانتي، وعلى عزف الموسيقى كموزارت، وعلى رسم لوحات دافنشي، لا شكّ أن هذه النظرة لأصل الكون "مجنونة" لا أعني بهذا الذّم، بل أعني أنه جنون حقيقي، أحد أعراض "الفصام" ذلك المرض النفسي الشهير، ورغم ذلك: ما زال هذا التفكير يقدّم كعلم موضوعي لكل شخص يتوق لاكتشاف الحقيقة حول أصل الحياة ووجود الإنسان فيها ومعناها".
هذه النظرية كما يرى شوماخر هي النفعية في أشد صورها تطرّفًا، إذ أن كل شيء يتم تفسيره بواسطة انتخاب طبيعي، بالتالي ليس هناك ما يثير الإعجاب في هذه العملية، لأن كل شيء حصل بالصدفة!
يلخّص شوماخر كلامه خاتمًا هذا الجدال تمامًا بقوله: "يصبح العلم الوصفي مخالفًا للقواعد العلمية ويفقد شرعيته، حينما ينغمس في النظريات التفسيرية الشاملة التي لا يمكن دحضها بواسطة التجربة، ونظريات كهذه لا تعد "علمًا" بل "متعقدًا"" أ.هـ

- **إلى أين وصلنا؟ ـ مشكلات العيش في هذا العالم!**

نحن نعيش في عالم صعب، هذه حقيقة يتفق فيها معنا شوماخر، وهو يخبرك أنك لكي تعيش في هذا العالم عليك أن تتحلى بالصبر، لأن الحياة هي باختصار: "مهارة مجابهة المشكلات"، لكن المشكلة أن التفكير ببعد واحد أوصلنا إلى اعتقاد جازم أن المشكلات في طريقها للاضمحلال إذا ما اتبعنا منهجًا منطقيًا كميًّا قياسيًا، وأصبح عندنا الكثير من العلماء – بشكل غير مسبوق في تاريخ البشرية – يعملون لا على التأمل في الكون وفي ذواتهم كما كان القدماء، بل على حل المشكلات، لكن المشكلة أن البشارة انعكست، حيث صارت المشكلات أكثر عددًا وأشد عمقًا، وهو ما يدفعنا للتساؤل عن طبيعة المشكلات، وما القابل منها للحل وما لا يقبل!

يقسّم شوماخر المشكلات التي يعمل عليها الإنسان إلى قسمين: مشكلات تقاربية، ومشكلات تباعدية..

المشكلات التقاربية هي تلك التي تعمل كثرة حلولها على الاقتراب من الحل الصحيح، لنفرض مثلًا: نريد آلة غير ميكانيكية بعجلتين للسير؟

هذه مشكلة تقاربية، سنظل ندرس، ونرجح نموذجًا على آخر، لنصل إلى الدراجة في النهاية، ولتنتهي المشكلة للأبد، لقد أغلقت تمامًا، ويسمى شوماخر هذه المشكلات: مشكلات الجانب الميّت من الكون! لأنها تركّز على أمور يمكن حلّها نظريًا والانتهاء منها تمامًا..

أما **التباعدية**، فهي تلك المشكلات التي كلما وصلنا لإجابة صحيحة: ازدادت الإجابات تباعدًا.. خذ مثلًا: كيف نعلّم أبناءنا؟، تلك مشكلة، ويجب أن نحلها فعلًا، بعضهم سيقول: التعليم عبارة عن نقل المعرفة من أولئك الذين يعلمون لأناس أقل علمًا، وهي ما يعني هنا شكلًا من السلطة والسيطرة بالنسبة للمعلم، وشكلًا من الخضوع والاحترام بالنسبة للمتعلم.. والبعض سيقول: التعليم عبارة عن تعليم للقدرات وليس للمعرفة، فمهمة المعلم أن يهيء البيئة المناسبة، وستنمو النباتات كل على حدة بخصائصها الفريدة والمميزة، أي أنه لا يوجد أي شكل من أشكال السلطة والسيطرة!

الآن: أيهما على صواب؟ الإجابة: لا نعلم!، ومع ذلك يظلّ هناك معلمون جيدون جدًا!، كيف أصبحوا كذلك؟، يمكننا أن نسألهم.. لكن لو سألناهم: أيهما أفضل للتعليم، أن نمنح المعلم سلطة وسيطرة، أو نترك للطالب الحرية ونوفر له البيئة المناسبة؟! لربما أجابنا: هذه أسئلة أعلى من مستوى ذكائي!

كل ما في الأمر، أنني أحب هؤلاء الطلّاب وأعاملهم كأبنائي فعلًا، هذا ما يجعلني معلمًا جيدًا!! لاحظ أن الإجابة على السؤال لم تأت من الثنائية التي سببت المشكلة التباعدية، بل من شيء "إنساني" صرف، وهو حب المعلم لطلابه وتفانيه في خدمتهم! وهذه الميزة الرئيسية للمشكلات التباعدية، أنه لا يمكن حلّها إلا بالبعد المتسامي، بالذات العليا للإنسان، بتلك الـz التي بدأنا بها الكتاب، ولا يمكن حلها إطلاقًا بشكل منطقي، لأنه ما من طريقة للترجيح بالمنطق بين الخيارين!، عقولنا المنطقية تكره هذا النوع من المشكلات لأنها تحب أن تكون في جانب ما، لكن في النهاية: الحل لم يكن منطقيًا أبدًا! وهكذا، كلما ظهرت المشكلات التباعدية، كلما كانت الحلول غير منتمية إلى المستوى السطحي المنطقي، بل دائمًا فوقه..

بدءًا من كيف نعلم أبناءنا؟، مرورًا بكيف نحكم المجتمع؟، بالحرية أم بالمساواة؟، انتهاءً بكل الأسئلة الكبرى..

دائمًا ما تكون الحلول متباعدة!، فالحرية ضد المساواة بشكل واضح، والمساواة ضد الحرية كذلك، لذا لا بد من شيء خارج الإجابتين يحتاج قدرة إنسانية خالصة، وحل هذه المشكلة السابقة لا يمكن دون الإجابة عن سؤال: ما هو الخير وما هو الشر؟ لتكون مفاهيم فوق هذه الثنائية تحكم النظام وما تحت النظام!

حتى في الفّن، لن نجد فنّا مجردًا من معنى إنساني متجاوز، كما اعترف أناند كوماراسوامي حين قال إن "كل الأعمال الفنية العظيمة تدور عن "الله" الذي يرفضه مجتمع الطبقة العليا، لأن الفن حينها سيكون تعليمًا فلسفيًا، أي أنه بالظبط ما يطلبه طلاب علم اللاهوت وعلم الوجود".

لماذا كل الأعمال الفنية العظيمة هي عن الله؟ "لأنها ترشد الإنسان كيف يصعد من السفح إلى قمة الجبل دائمًا، إنها تجيب على سؤال الحيرة الإنسانية، إنها تحاول أن تخرجنا من حالة البؤس الوجودي إلى حالة الهناء".
إذًا فالفن وفقًا لهذه النظرة: نوع من البحث عن الفضيلة وعن ما هو خيّر، وما هو شرير؟ وهنا يقول شوماخر: سيكون من السخيف هنا أن يقال أن هذه "فضيلة وخير" دون وجود جواب على سؤال: لماذا تعدّ هذه فضيلة؟ إذ أن "الفضيلة للفضيلة" دائمًا ما كانت حجة سخيفة، ولا يمكن أن يرضاها معلموا هذا العالم الكبار، لكن شوماخر عرف أن الإجابة على هذا السؤال لن تكون من خلال قاعات دروس فلسفة الأخلاق التي تضجّ بالآراء من هنا وهناك عن معنى الفضيلة بينما في النهاية لا يسألون السؤال الصحيح، وهو: " ما الهدف من حياتنا أصلًا؟" إذ أنه وبدون الإجابة على هذا السؤال ستكون محاولة الإجابة على سؤال: "لماذا الخير خير؟" مجرد محاولة فاشلة قبل بدايتها!، وأفشل منها الجوابات الداروينية عن الخير بأنه "المنفعة"، لأن الناس أنفسهم يرفضون هذا الاختزال تمامًا، وعندما يكونون مرتاحين وفي قمة النجاح، تقفز فورًا الأسئلة: هل هذا خيّر؟، هل هذا طيّب وجميل؟، مما يعني رفضهم لجواب المنفعة كإجابة حصرية على سؤال الفضيلة.

- **استعادة النسق: رينيه مرة أخرى!**

ما أحدثته الثورة الديكارتية في عقول الأوروبيين من الاقتصار على الأرض – والأرض فقط بوصفها مادة – صارت نتائجه جلّية اليوم، فالناس في خوف دائم، وقلق مستمر، وتفكير ريّاب متشكك في قدرة الإنسان اللامحدودة التي بشروا بها على حلّ المشكلات بمفرده، لقد اكتشف الإنسان – بعد أن استبعد الجنة من حياته – أن الأرض مكانٌ مؤقت، وأن استبعاد الجنّة من حياته، يعني هبوطًا اضطراريًا نحو الجحيم!

يمكن تصوّر العيش بلا كنائس، لكن لا يمكن تصوّر العيش بلا دين، لأن الحياة الحديثة بلا دين أثبتت فشلها كتجربة في التعامل مع الإنسان بمستويات وجوده المختلفة وظواهره الكليّة ومشكلاته "التباعدية" التي هي أوسع كثيرًا من أن يتم تضييقها وحصرها في الإطار المادي!

يقول شوماخر أخيرًا: أن استعادة المجتمع تأتي فقط من الداخل، من أن ننظر في أنفسنا ونستعد لتغيير قناعاتنا تجاه هذا العالم وطبيعته، وحينها ستجد المشكلات التباعدية طريقها للحل، لأنه لم توجد أبدًا مشكلة اقتصادية طالما كان هناك إنسان قادر على أن يتخلص من بعض ثروته لإطعام الآخرين، ولن توجد مشكلة أخلاقية ما دام واضحًا لنا ماذا تعني لنا أنفسنا وماذا نعني للناس وكيف ننظر إليه وينظرون إلينا وما مغزى وجودنا في هذه الحياة ولماذا الخير خير والشر شر؟

إن فنّ الحياة هو فنّ صنع شيء جيدٍ من شيءٍ سيء: إذا كان العالم قد تم تخريبه بفضل أفكار قاصرة، فإن الإنسان كان دائمًا قادرًا على صنع شيء إيجابي بأن "يعود" ويتوب!